المدرسة الاستعمارية في الجزائر

د / الزبير يقدح
جامعة الجزائر

1 – المدرسة الاستعمارية:

لا بد من الإشارة في البداية إلى وجود مدرسة بصفتها مؤسسة تعليمية في الجزائر قبل الإحتلال و قبل مجيء فرنسا. هذه المؤسسة التعليمية طبقا للثقافة الإسلامية و معاييرها و قيمها الروحية هي التي قضت على الأمية في الشعب الجزائري و جعلته متعلما بنسبة عالية أدهشت قادة الإحتلال منذ اللحظة الأولى، و قدروها بنسبة تفوق 85% من الشعب الجزائري متعلما يحسن القراءة و الكتابة و يحمل صورة واقعية عن ذاته و انتمائه (وهو ما جعل المقاومة الجزائرية تكون بالشكل و الصورة اللذين كانت عليهما و بهما مقاومة الجزائريين) بدليل شهادة لامورسيار *، الأمر الذي جعل فرنسا تنتبه إلى هذه الحقيقة التي حاربتها بكل قوة منذ الوهلة الأولى و هي هدم المدرسة الجزائرية بكل أشكالها من المدرسة القرآنية إلى الزوايا في كل أنحاء القطر .

إذن بالنسبة للشعب الجزائري فإنه عرف المدرسة و العلم و التعلم بشكل مكثف منذ مئات السنين وقد اشتهرت مدن بهذه الميزة عبر التاريخ الإسلامي أي بمجيء الإسلام، مثل : بجاية و قسنطينة، و الجزائر(العاصمة) و البليدة و المدية

ومليانة و مازونة و تيارت (تهرت) و تلمسان و ندرومة على سبيل المثال لا الحصر سيما مثل مدن الجنوب في الصحراء .

و ليس لفرنصا أي فضل في بناء المدارس في الجزائر، فالحقيقة إذن أن فرنصا بنت مدارسها التي تخدم ثقافتها الاستعمارية العدوانية على حطام المدارس الجزائرية العريقة .

هيا ندرس المدرسة الفرنصية في الجزائر من منظور استعماري بحت .

إن المدرسة تمثل حجر الزاوية في النظام الإستعماري سواءا كان الأمر في الجزائر أو في غير الجزائر، فمن خلال المدرسة استطاع الإستعمار أن يمتد في المستقبل ويتجاوز بسهولة كل توقعات آمال طموحاته التي يسعى إليها بكل جهوده وقواته لبلوغها و تجسيدها في الواقع .

إن الإستعمار كمصطلح سياسي عسكري حضاري لا يعني فقط احتلال الأرض و استغلال ثرواتها إنما يعني فيما يعني الهيمنة على عقل و ذهنية الجزائريين الذين سموهم لظروف حضارية إستعمارية " أنديجان " .

غالبا ما سبقت عملية التنصير المدرسة لذا فإنه من الصعب جدا الفصل بينهما سيما في بداية الإحتلال أي في المرحلة الأولى، فالتنصير و المدرسة رفيقان يتتابعان و يحترمان الأولويات، و عندما نعمق الملاحظة فإننا نكتشف بأن المدرسة في نهاية المطاف ما هي إلا وسيلة في يد التنصير إن لم تكن وسيلة إنتزاع الإسلام من عقول أبناء الجزائريين و قلوبهم و سحق أرواحهم في تضليلها بغرس التكبر في نفوسهم عن العبادات و تشغيلهم بالغرائز و الحرص على إشباعها باستمرار .

2- مهمة المدرسة الفرنسية :

قبل أن تشرع المدرسة الفرنصية في أداء مهمتها و القيام بوظيفتها كان عليها منذ البداية أن تتخلص من المدرسة الجزائرية كبناية أولا و إن لم يبق منها إلا أطلالها ، فقد هدمها جيش الإحتلال و استولى على الأراضي و المحلات الأخرى التي تقوم بتمويلها و تموينها، و هي كلها مدارس خاصة ليس للدولة فيها لا ناقة و لا جمل، فالشعب الجزائري هو المشرف عليها بالتمويل و التسيير و في وضع البرامج و المناهج في الوقت الذي كانت فرنصا ما زالت لم تتعرف على المدارس العمومية، و قد كان التعليم يومئذ في فرنصا لا يزال في قبضة الكنيسة رغم تخلص الدولة من هيمنتها وسلطانها، و إذا كان جول فيري النائب الذي وضع معالم المدرسة الإبتدائية و سطر ذلك بعد زيارته للجزائر وإقامته في منطقة القبائل التي اكتشف فيها المدرسة الجزائرية و نظام التعليم المجاني السائد هناك ، إلا أعواما بعد الاحتلال

لقد إنبهر جول فيري بما اكتشف في الجزائر و درس المدرسة الجزائرية الدراسة التي مكنته بعد عودته إلى فرنسا باتخاذ قرارين (نتيجة إكتشافه لديمقراطية التعلم في الجزائر آنذاك) و هما : مجانية التعليم الإبتدائي و إجباريته على غاية بلوغ الطفل السن الرابع عشرة من عمره، فكان لا بد على فرنصا في الجزائر أن تتخلص من المدرسة الجزائرية التي تحولت إلى خراب بعد سبعين عاما من المقاومة الشرسة، فبعد ذلك أصبحت تسعى لتتخلص من آثارها و تعاليمها في الواقع الإجتماعي .

لا يمكن فهم و إدراك مهمة المدرسة الإستعمارية منذ البداية و بسهولة .

بادئ ذي بدء ما معنى المدرسة الفرنصية في الجزائر؟ ما هي مهمتها؟ و ما هو هدفها؟

إن المدرسة الإستعمارية الفرنصية في الجزائر ليست مؤسسة بر و إحسان كما يدل عليها نعتها، فلقد قامت المدرسة الإستعمارية لغزو العقول، فالإستيلاء على عقل "الأنديجان" الجزائري هو مهمة تلك المدرسة و شغلها الشاغل .

كان على فرنصا في البداية أن تزيل عسكريا كل ما من شأنه أن يعرقل تلك المهمة، فقد منعت فرنصا أن يواصل تعليم اللغة العربية لأبناء الجزائريين الأيتام الذين أصابهم الفقر و الجوع و قد فقدوا الآباء و الأخوة و الأجداد الذين كانوا يعولونهم و لم يبق إلا السيدات و البنات، كما منعت فرنسا الجزائريين بعدما قضت على المقاومة من ممارسة شعائر دينهم في المساجد و المحاكم .

لقد هدمت فرنصا المدارس و الكثير من المساجد و خاصة المحكمات بآلاتها العربية، كما حولت المساجد في الكثير من المدن إلى كنائس و معابد لليهود، و أحيانا أخرى فقد تجاوز الفرنصي كل التوقعات و ذهب إلى أبعد مما نتصور إذ حول المساجد إلى إصطبلات.

في الوقت الذي أصبح فيه أبناء الجزائر الشباب الناشئ في أمسّ الحاجة إلى من يعلمه لغته التي يتكلم بها و هي الأداة الأولى و الرئيسية في الإتصال والتخاطب فقد أصبح الجيل الرابع بعد المقاومة غير قادر على التخاطب باللغة العربية وحتى العامية بسبب المقاومة التي نشأ فيها و هي حرب مستمرة و معارك متتالية وأصبح الجميع يعيش في حالة إستنفار قصوى ، فتقلصت الكلمات و أصبح التخاطب نابعا من الخوف و الغضب و القلق و الفزع و الحزن، سيما عند النساء و هن المدرسة الأولى التي يتلقى فيها الطفل تعاليمه و تراثه الذي يرثه من

أسلافه إلى أن أصبح الشعب الجزائري برمته في الأمية و العجز عن القراءة والكتابة إلا قليلا منه .

و من خصائص الشعب الجزائري أنه مجتمع ديني يطبق شعائره الدينية يوميا لكن في هذه الحالة من الأمية المصحوبة بالجوع و اليتم و الهموم و الأحزان أصبح غير قادر على إقامة الصلاة التي تتطلب حفظ بعض السور القرآنية، فلم تسمح فرنصا للجزائريين ببناء مدارس أخرى يعلمون فيها أبناءهم و بناتهم اللغة العربية و تعاليم الإسلام، لكن في جانب آخر فقد فتحت أبواب مدارسها لبعض الأطفال من الجزائريين الذين قبل آباءهم أن يكونوا لفرنسا و هي الخطوة الأولى لإقامة مجتمع إستعماري من الجزائريين كما أنها هي القاعدة الأساسية في الحرب الإجتماعية التي تسرعت فرنصا في تطبيقها و هي السلاح البطئ المفعول ضد الشعب الجزائري بتمزيق نسيجه الإجتماعي بتكوين نخبة في مدرستها لتخدم مصالحها و معادية للمجتمع الجزائري ثقافيا إن عاجلا أم آجلا .

أما المدارس الجزائرية تلك المؤسسات التعليمية المعروفة بالزوايا و التي تعتبر هي مهد المقاومة، فقد أزالتها و محتها من الوجود لتبقى الساحة أمامها خالية في نشر ما تريد من ثقافة و أفكار و تعاليم .

إن لفرنسا الإستعمارية مدرستين، مدرسة كنيسية صليبية تنصيرية يشرف عليها الرهبان، و مدرسة لائكية إلحادية تشرف عليها الإدارة الإستعمارية و العلاقة بين هاتين المدرستين علاقة صراع و حرب فكرية سياسية منذ ميلادهما، و لم تتوصلا إلى إتفاق بينهما إلا فيما يتعلق بمهمتهما في كيفية الإستيلاء و الهيمنة على الشعب الجزائري، تلك المهمة المتمثلة في إنتزاع الإسلام من قلب الشعب الجزائري و فكره و سلوكه و واقعه بالكامل، فلا أحد منهم يسمح للإسلام أن

يبقى في الحياة الإجتماعية إلا داخل المسجد، و الأهم أن يقصى الإسلام من ساحة المعركة حتى يسهل كل صعب أمام فرنسا في أداء مهمتها الإستعمارية .

هذا ما يبينه ووضحه وزير التربية الفرنصي ألفريد رامبو عام 1898 في تصريحه الذي يحدد مختلف مراحل الإحتلال و الغزو للجزائر :

« La première conquête de l'Algérie a été accomplie par les armes et s'est « terminée en 1871...

« La seconde conquête consiste à faire accepter par les indigènes notre « administration et notre justice.

« La troisième conquête se fera par l'école. »

الترجمة :

" لقد تم الغزو الأول للجزائر بالسلاح و انتهى عام 1871 .

"و يقتضي الغزو الثاني في إخضاع الشعب الجزائري لإدارتنا و عدالتنا.

" و الغزو الثالث سوف يتم بالمدرسة."

مهمة المدرسة الفرنسية في الجزائر واضحة فهي مكلفة بالغزو الفكري للنشء الجزائري، هذا التصريح دليل و برهان لمن أراد ذلك فمهمة المدرسة الفرنصية في الجزائر ليست علمية بقدر ما هي غزو فكري يجعل من الشعب الجزائري مستقبلا تابعا لفرنصا، و هي تهيمن عليه نفسيا و فكريا و ذهنيا و ثقافيا وسلوكيا و سياسيا و اقتصاديا و بكل تأكيد إجتماعيا .

و إلا ما معنى مهمة المدرسة الفرنسية إذا لم تكن كذلك، و هي جعل الجزائريين خادمين لها، بيادق، عبيد، عملاء فكريا و سفراء للثقافة الفرنسية في أوساطهم

هذا ما فهمه الجزائريون الأوائل عند ظهور المدرسة الفرنصية فلا فرنصا عرضت عليهم التعليم في البداية و لا هم كانوا متحمسين لإرسال أبنائهم إليها و قد كانوا يفهمون و يفسرون الإلتحاق بمدرسة فرنسا أنه كفر و إلحاد، ردة وتضليل، يتعلمون فيها الإنسلاخ الثقافي و الإبتعاد عن الهوية الجزائرية العربية الإسلامية و ذلك بتعليمهم اللغة و الثقافة الفرنصية و كيف يكونون فرنصيصا من الدرجة الثانية: التعلم في المدرسة الفرنصية، التحدث باللغة الفرنصية والتفكير و السلوك الفرنصي، فالمدرسة الفرنصية هي من يشكل ذهنية النشأ الجديد وفق مذاق و ذهنية و تصور الحياة الفرنصية .

3- فلسفة المدرسة الفرنصية في الجزائر:

بعد عشرات السنين من المقاومة ضد الغزو و الإحتلال الفرنصي أدركت فرنصا و أيقنت بأن وجودها مهدد في كل لحظة حاضرا و مستقبلا، و السبيل الوحيد الذي يمكن فرنصا من وضع حد لذلك التهديد هو المدرسة التي يجب أن تلعب دورا في تغيير ذهنية أبناء الجزائريين تجاهها، لكن ذلك لن يتحقق إلا إذا جعلت من تلاميذها الجزائريين ينسون من هم بالنسبة لتلك المقاومات الدامية التي خلفت آثار قوية في نفوسهم.

ففلسفة المدرسة الفرنصية مضادة للفلسفة الأصلية للتربية بصفة عامة، و لفلسفة التعليم المدرسي بصفة خاصة .

إن فلسفة التربية بمفهومها العام هي مجموعة التساؤلات التي يحاول الآباء والمعلمين و رجال التربية الإجابة عليها أثناء ممارستهم للتربية و التعليم مع النشء الجديد، و لا يتوقف الأمر فقط بالإجابة على التساؤلات إنما بتعليم

المنهج الذي يستخدم في كيفية حل المشاكل الطارئة و التي يواجهها الإنسان في حياته، من بين تلك التساؤلات :

1- من أنا؟ و لماذا أنا هكذا بهذا الشكل و هذا اللون؟

2- من الذي أوجدني (أو خلقني) في هذه الحياة؟

3- لماذا جئت إلى هذه الحياة؟

4- ما هو مفهوم الحياة؟

5- ما هي مهمتي في هذه الحياة؟

6- ما معنى الموت؟

7- لماذا تنتهي الحياة بالموت؟ لماذا أموت؟

8- ألا توجد حياة بعد الموت؟

9- ما هي إذن و ما هي حقيقتها؟

10- ما معنى تلك الحروب و المقاومات التي قضت على الآباء و الأجداد و خلفت الكثير من الأيتام؟

11- من هي فرنصا بالنسبة للجزائريين و ما حقيقة الجزائريين بالنسبة لفرنصا؟

12- لماذا أصبح وضع الجزائريين حزينا و بائسا و هم أهل الجزائر، بينما الفرنصيص هم السادة و الأغنياء في الجزائر؟

13- ما الإستعمار و ما حقيقته؟

14- وهل هو لصالح الجزائريين أم لصالح فرنصا؟

15- كيف و متى ينتهي الإستعمار في الجزائر؟

هذه بعض التساؤلات التي تطرح على الإنسان و على الشاب الجزائري الذي فتح عينيه في زمان الإستعمار سيما في زمان المقاومة التي خاض جيش فرنسا

المنهج الذي يستخدم في كيفية حل المشاكل الطارئة و التي يواجهها الإنسان في حياته، من بين تلك التساؤلات :

1- من أنا؟ و لماذا أنا هكذا بهذا الشكل و هذا اللون؟

2- من الذي أوجدني (أو خلقني) في هذه الحياة؟

3- لماذا جئت إلى هذه الحياة؟

4- ما هو مفهوم الحياة؟

5- ما هي مهمتي في هذه الحياة؟

6- ما معنى الموت؟

7- لماذا تنتهي الحياة بالموت؟ لماذا أموت؟

8- ألا توجد حياة بعد الموت؟

9- ما هي إذن و ما هي حقيقتها؟

10- ما معنى تلك الحروب و المقاومات التي قضت على الآباء و الأجداد و خلفت الكثير من الأيتام؟

11- من هي فرنصا بالنسبة للجزائريين و ما حقيقة الجزائريين بالنسبة لفرنصا؟

12- لماذا أصبح وضع الجزائريين حزينا و بائسا و هم أهل الجزائر، بينما الفرنصيص هم السادة و الأغنياء في الجزائر؟

13- ما الإستعمار و ما حقيقته؟

14- وهل هو لصالح الجزائريين أم لصالح فرنصا؟

15- كيف و متى ينتهي الإستعمار في الجزائر؟

هذه بعض التساؤلات التي تطرح على الإنسان و على الشاب الجزائري الذي فتح عينيه في زمان الإستعمار سيما في زمان المقاومة التي خاض جيش فرنسا

حروبها و هو يأتي على الأخضر و اليابس و الإنسان و الحيوان و المكان. لكن فلسفة المدرسة الفرنصية سوف تبذل كل جهودها لتنسي النشء الجديد من الجزائريين إنتمائهم التاريخي و الحضاري و الثقافي إلا من الجانب العربي لحاجة في نفس فرنصا: أنا بربري! أنا شاوي! أنا قبائلي! أنا ميزابي! أنا صحراوي! أنا عربي! فتوجيه النشء الجديد نحو هذه الذهنية كما ذكرنا سابقا القصد منه تمزيق النسيج الإجتماعي طبقا لفلسفة الإستعمار الكبرى" فرق تسد " ! .

إذا كانت تربية و تعليم الجزائريين في الإجابة على كل الأسئلة المطروحة نابعة من الإيمان بالله و اليوم الآخر و من تصورات إسلامية واضحة فإن المدرسة الفرنصية سوف تنطلق في الإجابة على تلك التساؤلات بادئ ذي بدء :

- من التنكر للذات.
- الإعجاب بفرنصا.
- التشكيك في الإسلام دين و ثقافة و حضارة.
- الإنحناء أمام فرنصا و التصريح بالتبعية لها إن رضيت به.
- الإلحاد و الكفر.
- التمزق النفساني.
- الصراع الفكري الذي أنشأته فرنصا في ذهنية النشء القائم على هذه المعادلة غير المتساوية، كراهية الذات و الإعجاب بفرنصا.
- مركب النقص و الخجل بالإنتماء الإجتماعي أمام الفرنصيص.
- وجود فرنصا في الجزائر لصالح الشعب الجزائري حاضرا و مستقبلا.

و على المدرسة الإستعمارية أن تكمل البقية و هي أن تجعل من النشء الجديد يقبل و يرضى بوجود فرنصا في الجزائر إستعمارا و محوا لذاكرتهم. العجيب أن

الشعب الجزائري لم يرض بأن يلتحق أبناءه بالمدرسة الفرنسية إلا أبناء العملاء الذين حصلوا على بعض الإمتيازات على حساب شعبهم الذي ينتمون إليه ورغم ذلك فإن فرنصا لم ترض عنهم و لم تضع فيهم ثقتها إلا كما يتعامل السيد مع عبده بحذر، و لقد رأى البعض من الفرنصيص في تعليم أبناء الجزائريين حتى و إن كانوا من أصل عميل خائن فإن ذلك يشكل خطرا يهدد فرنصا مستقبلا.

هذا ما صرح به أحدهم و هو مدير ثانوية البليدة عام 1938 حيث جمع كل التلاميذ (الذين كان من بينهم عدد قليل من أبناء الجزائريين يعدون على الأصابع) و الأساتذة و ألقى عليهم خطابا يفيض حقدا و عداوة و شحناء ضد الجزائريين و هو يقول بحماس :

"أنا قلت لهم من زمان و ما زلت أكرره، لا تعلموا أبناء الجزائريين فإن تعليمهم يشكل خطرا علينا و على فرنصا .

"لكنهم لم يسمعوا كلامي! إنهم لا يريدون الإعتراف بهذه الحقيقة .

"إنها لجريمة تعليم الأنديجان!

"كل جزائري نعلمه فإنه خنجر نشحذه على ظهر فرنصا .

ثم إلتفت إلى التلاميذ الجزائريين و قال لهم :

"تريدون أن تتعلموا لتطعنوا فرنصا من الخلف!

" أليس كذلك" ؟

« Je leur avais dit depuis longtemps, et ne cesse de le répéter : ne donnez « aucune instruction aux indigènes ! Mais ils ne veulent pas m'écouter .

« Ils ne veulent pas admettre cette vérité :c'est un crime d'instruire les « indigènes .
« Ce sont des poignards qu'on aiguise contre la France .
« Vous voulez vous instruire pour mieux nous poignarder dans le dos ,n'est-« ce pas ? »

لم يتفوه بهذا الكلام أي فرنصي إنما هو صادر من أحد ينتمي إلى نخبة الإستعمار الفرنصي و هو مدير ثانوية في ذلك الزمان، و الحقيقة أنه صادقا فيما قاله لأن من التلاميذ الجزائريين الذين التفت إليهم في حالة غضب و إن لم تكن له الشجاعة ليقول ذلك الكلام إلا في حالة السكر فإن من بين هؤلاء الجزائريين: السادة بن يوسف بن خدة، سعد دحلب، عبان رمضان، محمد اليازيد و هؤلاء جميعا صاروا فيما بعد من قيادة الثورة من 1956 إلى غاية الإستقلال عام 1962 .

4- أساليب المدرسة الإستعمارية في الجزائر :

مهما كان موقف الإداريين و إن كانوا يشكلون الأغلبية الرافضة لتعليم أبناء الجزائريين فإن عقلاءهم و حكماء الإستعمار الفرنصي و خبراءه لهم رأي مخالف تماما، إنهم يرون في تعليم الجزائريين ضمان لإستقرار فرنصا و مستقبلها في الجزائر، و هذا ما يؤكده أحدهم و هو يوجه لهم الرأي السديد بأن يغيروا أسلوبهم في التعامل مع الجزائريين:

" بناء مدرسة خير من تجهيز فيلق من الجيش "*

إن صاحب هذا التصريح يدرك تماما ما يقول و الهدف الذي يريد الوصول إليه و هو يطوي صفحة فترة المقاومة المسلحة التي تجاوزت مدتها الثمانين عاما

ويريد أن يفتح صفحة جديدة للجزائر و الشعب الجزائري، إنه يريد التقارب مع الجزائريين لكن التقارب يستحيل تحقيقه بالسلاح الذي و إن كان أكثر فعالية أحيانا فإن صلاحيته محدودة و لا يمكن أن يحقق كل أهداف الإستعمار.

فإن ظن الفرنصيص أن المقاومة لهم بالسلاح فقط فهذه وجهة نظر غير واقعية لأن الشعب الجزائري يرى بأن المقاومة انتقلت إلى مجالات أخرى سيما الإجتماعية و الثقافية و ما زال مصرا أكثر من ذي قبل أن يبقى جزائريا عربيا مسلما رغم ما لحق به من خسائر بشرية و مادية وهو ما جعله يزداد تشبتا بهويته و أصالته، و في هذا الشأن لا يزال ما صنعته فرنصا بعد مقتل آبائه وأجداده و هي تهدم مساجده إجتهادا منها لمحو تاريخه و قطع صلاته به وبثقافته و تراثها العريق، هذا ما يؤكده الضابط شارل ريشارد و هو يتحدث في كتـــابه *:

« Nous ne verrions pour notre part, pas grand mal à ce que ces « établissements (écoles et mosquées) tombassent en poussière, et à ce que le « peuple arabe retournât à l'ignorance des premiers âges.
« Ile nous serait possible de lui apprendre quelque chose et de l'approprier « par l'éducation. »

ترجمة:

" لا نرى من جهتنا عيبا كبيرا في جعل تلك المؤسسات (مدارس و مساجد) غبارا، و أن يعود "الشعب العربي (الجزائري) إلى جهل العصور الأولى .
" فإننا سوف نتمكن من تعليمه بعض الشيء و نملكه بالتربية."

إن شارل ريشارد رغم كونه ضابط في الجيش إلا أن له النظرة تختلف عن نظرة مدير ثانوية المعادي لتعليم الجزائريين، و هذا لا يعني أنه أقل إستعمارا و أقل عنصرية من الآخر، سوف تظهر الحقيقة جلية في ما كتبه نفس الشخص بعد ذلك في نفس الكتاب المذكور سابقا متحدثا عن الأسلوب الذي يجب أن يتعامل به الفرنصيص مع الجزائريين بروح عدوانية خالية من كل إنسانية و ما مصطلح "التربية" الذي يستخدمه ذاك الضابط إلا دليل عـــــلى الترويض ليـــس إلا !

و الحقيقة أن المدة الزمنية بين شارل ريشارد و مدير ثانوية البليدة حوالي تسعون عاما، فالأخير لاحظ ما لم يلاحظه الأول في المدرسة تفوق الجزائريين بذكائهم في دراستهم على الفرنصيص من أبناء المعمرين، لنقرأ ما كتب شارل ريشارد عن الأسلوب:

« Il nous faut d'abord mettre ce peuple algérien sous nos pieds pour qu'ils sentent nos poids, mais diminuer ensuite peu à peu la pression et lui permettre enfin après des siècle de se dresser à notre hauteur et de marcher avec nous dans « la grande voie du progrès . »

* Charles Richard : Etude sur l'inserrction de la dahr 1845-1846

ترجمة : " يجب علينا أولا وضع هذا الشعب الجزائري تحت أقدامنا ليحس بثقلنا، لكن نخفف الضغط بعد "ذلك رويدا رويدا و نسمح له في الأخير بعد قرون أن يقوم بجانبنا و يمشي معنا في طريق الرقي الواسع"

عندما نقرأ هذا النص قراءة واقعية ندرك ماهية الأسلوب الذي أتبعته المدرسة الإستعمارية و هي تبسط نفوذها و سلطانها على نفسية الجزائريين و ذهنيتهم ومشاعرهم و الهيمنة عليهم كليا حاضرا و مستقبلا إلا قليلا منهم و الفضل في ذلك يعود إلى يقظة الأسرة الجزائرية المسلمة التي لم توقف مقاومتها ضد مشاريع فرنصا، و سلاح هذه المقاومة الجديدة هي القيم الروحية و الخلقية والتعاليم الدينية التي لم يعد أكثرها إلا مجرد ذكرى عن تراث الأجداد .

لكن الشاهد عندنا يبقى أسلوب التربية التي تحدث عنها شارل ريشارد و التي بواسطتها سوف تتمكن فرنصا من إمتلاك الشعب الجزائري بعدما وضعته تحت أقدامها و هي تدوس عليه في عملية التربية، بعبارة أخرى إذا كان العلم نورا تستنير به القلوب و العقول و الذهنيات نحو هدف في الوجود و الحياة فإن التعليم في المدرسة الفرنصية بالجزائر يعني شيئا و هو جعل الجزائريين بعبارة وجيزة يسبحون بحمد فرنصا و يقدسون لها، تابعين لها و خدما لها و هم رهن إشارتها، هذا المقصود بكلام شارل ريشارد .

إن حقيقة أساليب المدرسة الفرنصية في الجزائر هو أسلوب إنتزاع شخصية الجزائري و محو مقوماتها بإتلافها و عدم السماح لها أن تعود مرة ثانية، والقضاء على إنية الجزائري و طمس هويته الثقافية الإسلامية، الفكر و الذهنية، المشاعر و عربية اللسان و الإنتساب، و فرنصا مصممة إن لم تقدر على تحقيق ذلك وبلوغه أن تحدث صراعا فكريا نهايته الصراع الإجتماعي و إرساخه في الواقع بالصراع السياسي إن عاجلا أم آجلا، أليس هذا أسلوب على المدى القريب والبعيد ؟ .

5- هدف المدرسة الفرنصية في الجزائري :

في الحقيقة ليس للمدرسة الفرنصية الإستعمارية في الجزائر هدفها واحدا إنما هناك مجموعة من الأهداف تخدم مجالات مختلفة، السياسية أولا و الإقتصادية و الثقافية كما سوف تظهر في السياق.

الأهداف هي كالآتي و إن كانت السبل المؤدية مختلفة :

1- التعايش الثقافي : l'apostasie ou la desislamisation

2- الانسلاخ الثقافي : le déracinement culturel : la déculturation

3- إقصاء الإسلام فكرا و سلوكا و مشاعر و نظاما للعلاقات و منهج حياة، وتقابله باللغة الأجنبية : la désislamisation

4- الردة الدينية : la naturalisation

5- التشبه أو التقليد : l'assimilation

6- الإندماج : l'intégration

هذه مجموعة من الأهداف محورها الرئيسي هو الثقافة، لسنا نهمل الجوانب الأخرى في العملية الإستعمارية لكن هذا العامل هو السبيل الذي يؤدي إلى بلوغ الهدف الإستعماري الرئيسي المعروف بالسياسة الإستعمارية التي تقوم أساسا على خدمة الإقتصاد الإستعماري الذي هو بدوره يقوم على إغتصاب ونهب ممتلكات و خيرات و ثروات البلدان و الشعوب المستعمرة.

فالهدف السياسي الفرنصي في الجزائر هو الجزائر فرنصية بشعبها وثرواتها .

و ما دام الشعب الجزائري يرفض هذا الإعتداء التاريخي و السياسي و الحضاري و هو دائما يقاوم و بالمرصاد، فإن فرنصا لا زالت تحاول فرنصة الشعب الجزائري بكل حيلة و قوة لعلى مدرستها سوف تبلغها أهدافها التي سطرتها.

هيا نسلط الضوء على كل هدف بمفرده و إن كانت العلاقة بينهما جميعا وطيدة و تكاد تختفي :

5- تعاليم المدرسة الفرنصية:

إنطلاقا من الفصل السابق فإنه يتبين لنا بأن فرنصا كانت تريد أن تصنع من المدرسة نخبة تخدم مصالحها على حساب الشعب الذي تنتمي إليه كما أنها كانت تسعى من جهة أخرى أن تجعل من النخبة التي تصنعها جسرا أو همزة وصل بين إدارتها الإستعمارية و الشعب الجزائري الذي ما زال يقاوم ويقاوم إلى أن يسترجع ما انتزع منه بالقوة و المكر و الخديعة، و ما زالت المدرسة الفرنصية تلك المؤسسة الإستعمارية التي لا تختلف في تعاملها مع الأطفال الجزائريين عن بقية الأجهزة الأخرى.

لقد لاحظ سادة الإستعمار الفرنصي في الجزائر أن أبناء الجزائريين متفوقين على أبناء الشعوب الأوربية الأخرى المتواجدين في الجزائر، فكانت تعاملهم على أساس عنصري و لم تكن تسمح لهم أن يسبقوا أبناء الفرنصيص في الترتيب ووضعت لهم قانونا خاصا بهم و بالشهادات التي يحصلون عليها، فأعلى شهادة يحصلون هي الشهادة الإبتدائية و كلما صعبت التعليم إلا و وجدت أن أبناء الجزائريين دائما هم المتفوقون، ففرضت على الجزائريين للنجاح أن يحصلوا على المعدل المرتفع في كل مادة في حين يكفي لأبناء الفرنصيص الحصول على المعدل العام، و كانت شهادات الجزائريين تسمى بشهادة تضاف إليها صفة

"الأنديجان" عندئذ و هم يشاهدون التفوق البارز رغم كل أنواع المضايقات والضغوط العنصرية في التعامل مع الجزائريين الذين حددت أعلى شهادة لهم هي شهادة الأهلية و لم تسمح لمواصلة الدراسة لمستوى البكالوريا الأولى و الثانية إلا القليل جدا منهم.

هذه الملاحظة الهامة كان لا بد للإشارة عليها لأن أبناء الجزائريين عانوا منها كثيرا في طفولتهم و تبقى خير شاهد على مقاومتهم و مشاركتهم في المقاومة منذ طفولتهم لأنهم متفوقون على أبناء الفرنصيص ذكاءا و نضجا و وعيا وإدراكا و استيعابا للدروس التي كانت بلغة أجنبية عنهم في حين كان أبناء الفرنصيص غير قادرين على استيعاب الدروس كلها رغم المساعدات التي تقدم لهم من طرف المعلمين المشجعين، فكانت مجموعة كبيرة منهم لا يحسنون التعبير باللغة الفرنصية في حين كان الكثير من أبناء الجزائريين بلابل في حديثهم باللغة الفر نصية، لكن الإدارة الفرنصية لم تقبل هذا التفوق البازغ في الجزائريين وعندما تدخل بعض الآباء و اتصلوا ببعض المتعلمين مستفسرين عن الأوضاع و هم يريدون إبعاد الأطفال عن الصراع الثقافي و الإجتماعي و السياسي محاولين تحديد ميدان الصراع خارج المدرسة فاكتشفوا من الجواب الذي حصلوا عليه أن فرنصا حددت ميدان الصراع في المدرسة بالذات و جعلت منها موقع نفوذها و هي تتسلط على النشء الجديد من الجزائريين بالضغوط و التمييز العنصري، و قالوا بالحرف: "أبناءكم متفوقون بكل تأكيد! و هم يطأطئون رؤوسهم، نحن المعلمون و على دراية كاملة بأبنائكم أبناءكم يقصون بصراحة لأنكم أنديجان و ليست لكم راية."

هذه هي النية التي كانت فرنصا تعامل بها الجزائريين و لو أطفالا في المدرسة.

و نزداد إكتشافا للحقيقة التي زالت عنها الحجب كلما تعمقنا في الدراسة، فكل ما كانت تريده فرنصا لأبناء الجزائريين أنهم يتعلمون منها أشياء ليعيشوا بها في أوساطهم لا لينجحوا و يتفوقوا بها عن أبناء الفرنصيص.

من تعاليم المدرسة الفرنصية اللائكية و هي حد السبل الرئيسية لإحداث أول صراع إجتماعي بين الأجيال و هم يكتشفون اللائكية ليس فحسب منهجا فكريا، إنما مفهوم جديد للحياة و تصور مخالف تماما للتصور الذي ورثوه من آبائهم عن واقعهم الذي صنعوه بأنفسهم من المقاومة الشرسة ضد الإحتلال.

فاللائكية كمفهوم فلسفي إكتشفوه في فرنصا و هي تفصل الدين عن الحياة اليومية و واقعها الإجتماعي و الثقافي و السياسي و الإقتصادي فلم تدرسها المدارس كمادة الحساب أو القواعد أو الجغرافيا إنما مارستها سلوكا مع الأطفال و منهجا فكريا دون الإشارة إليها و لا محاولة إلفات إنتباه النشأ الجديد لأنها تدرك تمام الإدراك أنها تحدث صداما فكريا و ثقافيا عنيفا يعطلها عن بلوغ هدفها و هذا ما ليست تريده، لكن سرعان ما انتبه أولياء التلاميذ إلى السلوك إلى سلوك أبنائهم و هم يتبنون سلوكا غريبا عنهم و هو عدم إحترامهم للكبار و هم يجادلونهم في قضايا عقيدية و خلقية اعتبروها خروجا عن الدين و الملة الإسلامية مثل قولهم ردا على ملاحظات آبائهم: نصلي عندما نكبر، و من أخبركم أن فيه حياة بعد الموت و ما إلى ذلك، فخلص الآباء إلى القول بأن المدرسة الفرنصية تعلم الكفر و الإلحاد فأوقف بعضهم أبناءهم عن الدراسة وصاروا يعتبرون الكلام بالفرنصية في المجالس من الكبائر، فالمجتمع الجزائري الذي كانت له تربية متميزة و تعليما يختلف كليا عن تعليم المدرسة الفرنصية، تعليم يخضع لمقاييس و ميزان الثقافة الإسلامية و قيمها التي ترسخ في نفوسهم

بالعبادات على اختلاف أنواعها مثل الصلاة و الصيام ليس فحسب الواجبات إنما النوافل مثل الصلاة في جوف الليل جماعيا و فرديا. إكتشف الجيل الذي التحق بالمدرسة الفرنصية أن ما يتعلمه لا صلة له بذلك التراث العريق، إنما اكتشف أن تعاليم المدرسة الفرنصية تعلم الإنسان الإهتمام بحياته و شخصه من خلال الغرائز و على حب الحياة و اليأس من الموت، فلاحظت الأجيال أن ما يتعلمونه في المدرسة الفرنصية قد أحدث صراعا ثقافيا ناجما عن صراع فكري خفي و ظاهر. و أنه يخدم مصالح فرنصا الإستعمارية التي احتلت بلادهم وقتلت أجدادهم و آباءهم عبر عدة أجيال، سيما أولئك الذين استطاعوا أن يواصلوا دراستهم إلى غاية قسم البكالوريا و دخلوا الجامعة.

إن المدرسة الفرنصية معروفة عالميا بميزة فلسفية رفيعة المستوى و اشتهرت بها أكثر من غيرها و هي روح النقد المتمثل في التساؤل عن الواقع و عدم القبول بمختلف الأمور و كأنها حقائق مسلم بها، فأدرك الشباب المتعلم في مدرسة فرنصا أن أول نقد يجب أن يطرح و يوجه إلى فرنصا بالذات هو عن تواجدها فوق التراب الجزائري، فهذا النوع من الشباب الذين لم تزدهم تعاليم المدرسة الفرنصية إلا تمسكا بتراثهم و هويتهم الثقافية إلى غاية ما أصبحوا يعتبرون المقاومة جزءا من ثقافتهم غير قابل للتجزئة هم الذين سوف يكون لهم شأن ودور كبير يوم المفاوضات و الجلوس على الطاولة الخضراء لإجبار فرنصا على التوقيع على هزيمتها و انتصار الجزائر و هم يلقنون أعضاء وفدها دروسا في اللغة الفرنصية و السياسة و الدبلوماسية، هكذا تعلموا روح النقد للواقع الذي يجب أن ينتقد و يغير الواقع أما الثوابت الخاصة بالتراث و الهوية الثقافية و المقاومة المستمرة و لو في صمت، فهي أمور غير قابلة للنقاش إنما التمسك بها في نظر

هؤلاء الشباب جزء من المقاومة الذي شرفهم، هذا ما أجبر الإدارة الفرنصية أن تغير إلى حد ما فلسفة و أسلوب التدريس و هي تلاحظ الأطفال يتوقفون عن الدراسة رفضا للكفر و الإلحاد و الشكوك التي طرحت حول الإنتماء الإجتماعي و الثقافي، و إن قبل به بعض عملاء الإدارة الفرنصية فبقية الشعب ما زالوا يأملون و يطمحون إلى شيء آخر و يتطلعون على مستقبل في غير مذلة و لا تبعية لفرنصا.